

ابن خلدون : واقع المنطق العربي في القرن الرابع عشر

بقلم خليل أحمد خليل

المهمة نعني : العلم والتعليم . ذاك ان علم الاجتماع التربوي الذي ولد منذ عهد فريب جدا في اوربا واميركا اثار اكبر المشكلات المعاصرة : الصراع الطبقي ، فرض الفكرولوجيا الارسطراطية على الطبقات الشعبية ذات الفكرولوجيا المستقلة والمستعمرة ماديا وثقافيا في آن ، وان هذا العلم المولود قد شق دربا جديدا في فهم تغيير تركيبات المجتمع البشري بواسطة الثقافة المسيطرة او انتصار الثقافة المسيطرة عليها . اذن ، رغم ان ابن خلدون لم يقصد في « التعريف » معالجة مثل هذه المضلات المذكورة ، فقد تعرض لعلم الاجتماع التربوي في مقدمته - وان لم يسمه باسمه - وسوف نعود الى هذه النقطة المهمة عندما نتناول مقدمته بالدرس . وكتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا » من منشورات القاهرة ، ١٩٥١ ، وقد عارضه بأصوله وعلق حواشيه محمد بن ناوي الطنجي . وهذا الاستاذ لسم يتعرض وللأسف لدراسة محتوى الكتاب فأخذنا ذلك على عاتقنا . لقد كون معاصرو ابن خلدون صورا كثيرة عنه ، ونحن نكتفي بالصورة التي قدم بها نفسه . ولا ننوي ان نعرف مدى صدق ابن خلدون ، فليس باستطاعتنا ان نستعيد ماضيه ونجزئه وندرسه فنحن مضطرون لتصديقه ، ولا نؤمن ان مقارنة صورته بالصور الاخرى تسمح لنا بتوضيح مدى صدقه .

أ - تجربته الفكرية

التجربة الفكرية وليدة المجتمع الحي بتركاته وتوجهاته . الا ان نمة نقطتين مهمتين لا بد من توضيحهما : اسرة ابن خلدون وعلاقاته الفكرية مع الطبقات المثقفة من معلمين ومفكرين وادباء . ابن خلدون عربي يماني ، ولد في تونس عام ٧٣٢ هجرية . وأهم ما يميز عائلته الانشغال بالعلم والسياسة . فعثمان جد ابن خلدون رجل سياسة ورجل علم . يقول ابن خلدون عن أسرته « ولا يزال (بينهم) الان في اشيلية ثابت الاصل . ثابت الفرع (موسوم) (١) بالرياسة السلطانية والعلمية » « ولم يزل بيت بني خلدون باشيلية .. سائر ايام بني امية الى ازمان الطوائف وانمحت عنهم الامارة بما ذهب لهم من الشوكة » . فهذا الانشغال بشؤون القيادة السياسية والفكرية غذى بلا ريب شخصية ابن خلدون ونماها ، الا ان تجربته الشخصية ومغامرته الفريدة بلورت معالمه وفتحت براعم نبوغه وفتحت لها أفقا وطريقة .

اما علاقته الفكرية فهي متعددة . نجد في القرن العشرين عددا من المفكرين العرب ترجموا حياتهم وتجربتهم الفكرية نذكر خصوصا الدكتور طه حسين في كتابه « الايام » والدكتور احمد امين في « حياتي » فيبينما يكتفي هذان الكاتبان الاديبان بسرد حياتيهما نفسيا فكريا ، يرسم ابن خلدون خريطة تجريبية لمغامرته بكل أبعادها . فما هي المؤسسة التربوية السائدة في المغرب العربي آنذاك ؟ درس ابن خلدون في المدرسة الاسلامية التقليدية . فقرأ القرآن العظيم كما يقول ، على « الاسناد المكتب » ونلاحظ ان درجة الاستاذ المكتب قد اختلفت من مدارسنا الحديثة ، فلا يمكن لاستاذ كبير ان يعلم الصفار الكتابة ويدرسهم كتابا مهما وصعبا كالقرآن الكريم . فهذا « الاستاذ » كان فقيها ونحويا ومكتبا في آن . وهذا يسمح ، كما نعتقد ، للطالب بالانفتاح على افاق عذبة ، الا ان ثمة صعوبة حقيقية تعترض سبيل البنديء ، والتي قد تؤدي به الى التشتت ذهنيا بدلا من التركيز والاتجاه . الا ان ابن خلدون قد فرأ على استناده ، القرآن بالقرءات السبع افرادا وجمعا في احدي

(١) هكذا واردة في الاصل والاصواب موسوما .

كان الشاعر الشعبي فيكتور هيجو يعتقد ان الكلمة كائن حي . وحيوية الكلمة مرتبطة ارتباطا عميقا بحيوية الشعب اجمالا . الفكرة التي تولد ، تولد لتخترق صمت الواقع وضججه . الفكرة توسع المدارك ، تفتح فضاء او تساعد على رسم طريقها . كيف يمكن للفكرة التاريخية ان تصمد امام التطور ؟ كيف يمكن لعالم اجتماع يعيش في القرن العشرين ان يعود الى مراجعة اثار عالم كابن خلدون ، من علماء العرب في القرن الرابع عشر ؟ ماضينا العربي فكريا هو فاعدة من فواعد انطلاقتنا . نحن لا نقول ان علينا ان نرجع الى هذا الماضي لتكريسه كما كان ، بطريقة التكرار التاريخي ، وانما علينا ان لا ننكر لحياتنا الماضية التي تخلف طبعا عن حياتنا الحاضرة اختلافا عاما ، وان لا نعتد الحاضر وحده كمطلق فكري . الاطلاع على الماضي بوعي امر جوهري . والذين اطلعوا على ابن خلدون من الغربيين اعتبروه « عبقرية شاذة » عند العرب ، لكن الذين اطلقوا على التراث الفكري العربي افننوا بان مثل هذا الشموذ العبقرى امر طبيعي لدى العرب - في الفلسفة والادب والعلوم - .

عبد الرحمن بن خلدون كتب في مرحلة سوداء سياسيا ، كان يتخللها بعض الاضواء المهمة في بعض اجزاء الامبراطورية العربية المتزفة سياسيا ، المستقلة نسبيا . فقد ظهر الادب الشعبي العربي بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر : ألف ليلة وليلة كاملة ، سيرة عنترة ، سيرة الظاهر بيبرس سيرة بني هلال ، سيف التيجان ، سيف بسن ذي يزن ، ظهر ايضا عبد الرحمن بن خلدون وابن الخطيب والادب الشعبي - الشعر العامي كما عند ابن شجاع مثلا . هل هناك انحطاط فكري عند العرب ؟ هل تغير الاتجاهات الفكرية وتطورها يعني الانحطاط ؟ هذا موضوع اخر ، الا اننا نرى ان العرب عرفوا مرحلة ركود جزئية وان ظهور الادب الشعبي في مرحلة الاستعمار السياسي لا تعني أبدا ان ثمة انحطاطا فكريا بالذات ، وانما هناك ركود اجتماعي قوامه ضعف همسة العرب بعد انقسامهم .

ان دراستنا لعبد الرحمن بن خلدون تسمح لنا بتوضيح نقاط كثيرة :

١ - الاطلاع على مرحلة مهمة من تاريخنا العربي : الحالة السياسية في المغرب عموما ، تجربة ابن خلدون السياسية والعلمية ، حالة التعليم والفكر عند العرب ، منهج الباحث العربي .

٢ - الاحتكاك احتكاكا مباشرا بابن خلدون المفكر من خلال مقدمته .

٣ - الاطلاع على مدى اهمية مفكر كبير كابن خلدون وكيف يمكن الحكم عليها من خلال الحاضر العربي .

ونحن لا نخفي اننا اكتفينا في عملنا هذا بالاطلاع على كتاب « التعريف بابن خلدون » للمؤلف نفسه ، والمقدمة لكتاب العبر . وتركنا هذا الاخير جانبا ، نظرا لطوله ، ولاننا لا ننوي الخوض في مجال التاريخ الذي لا نعرف عنه الا اشياء عامة لا تسمح لنا بتقييم اثره التاريخي .

١ - التجربة العلمية والسياسية

ابن خلدون لا يفضل تجربته السياسية عن تجربته العلمية ، وانما يراها مترابطين ، متماستكين ، تولدان في الواقع وتعيشان في سعته او في اعمافه وتخلقان معا « فضاء فكريا » ، ونحن اذ نفصل تجربته العلمية عن تجربته السياسية فانما نفعل ذللك لليضاح والتسهيل المنهجي لا اكثر . فما هي تجربته العلمية ؟ ان الامر المهم ليس فسي ان نعرف فقط كيف تعلم ابن خلدون وماذا قرأ ، ولا في ان نعرف بمن تأثر وعلى من اثر وانما في ان نتعرف علميا على مؤسسة من مؤسسات العرب

وظيفة فسارع الى الاجابة . وهذا يؤكد ان غرضه كان الحكم والادارة - الرياسة السلطانية - الى جانب الرياسة العلمية . وحينما انهزم صف ابن خلدون « نجا » بنفسه الى ابيه . يحسن ان نلاحظ ان ابن خلدون « سينجو » في المعارك التي يخسرها انتصاره ، ولعل ذلك عائد الى حنكه والى ايمانه بلا جدوى الالتزام ممتثلا بقول « يا رب نفسي » . وهذا ما نعاني منه أيضا في عصرنا الراهن ، فنحن نجد عددا من الابداء العرب لا يهزم أنضال العربي وكان قضايانا الراهنة لا تمسهم أبدا . ابن خلدون رجل « نجاه شخصية » ، غير ملتزم ، فهل كان ملتزما علميا ؟ هل كان ذا موقف ؟ هذا ما سنناقشه حينما نتعرض لمقدمته .

فابن خلدون لا يهتم بمن ينتصر ، ولا بعقيدة المنتصر والمنهزم ولا يجهد نفسه في التعرض لاختيار طريقة في العمل السياسي - طريقة واعية - وانما يكتفي بتأييد المنتصر فينضم الى صفه ، الى ان يهزم فيلحق بالمنتصر الجديد ، وهكذا دواليك . فلما استولى السلطان ابو عنان على بجاية يقول « فلما رجع السلطان ، وفدت معهم فنانتي من كرامته ما لم احسبه .. » فابن خلدون يعرف نفسه مكرما محترما .. فما سبب ذلك ؟ لان العلم كان رازحا في ذلك العهد تحت نير السلطان ولان المثقف العربي كان من ملحقات القصر السلطاني بصورة عامة - هناك استثناءات طبعاً - .

التحق ابن خلدون بمجلس العلماء عند ابي عنان في فاس سنة ٧٥٥ هجرية . يقول : « ثم استعملني في كتابته والتوقيع بين يديه على كرهه مني » . لماذا ؟ اذا كان لا يرغب في ذلك فلم لا يتهمد ؟ ان السبب الحقيقي لم يكن كامنا في حب ابن خلدون في تلك المرحلة ، للتححرر الفكري والعكوف على العلم وانما كان كامنا في نظرية التقليدية لرفعة شأن أسرته : « اذ كنت لم اعهد مثله لسلفي » . اذن غرضه هو الوصول الى منصب ارفع . وبعد ان خلع ابو عنان سنة ٧٥٩ هجرية خرج ابن خلدون من السجن ، اذ انه تاهر مع الامير محمد صاحب بجاية على السلطان ، فوعدهما السجن . وكانت نظرة ابن خلدون للشعر نظرية مصلحة لا فنية . فالشعر وسيلة للاستجداء والانتصار السياسي . وحينما كان في السجن نظم قصيدة استعطاف في مدح ابي عنان . ونلاحظ ان نظم الشعر كان أيضا يجب على حاجات العصر ، فكم من شاعر صار غنيا بفضل مدح او هجاء ، أو نجا من الموت . كان الشعر اذن وسيلة شخصية لا تعبيرية ، كان عند معظم الناطقين والشعراء . ولعل هذا يفسر عدم ظهور شعراء أصيلين في القرن الرابع عشر فسي المغرب - باستثناء ابن الخطيب ، وابن زهر ، وابن شجاع ... -

وابن خلدون العالم فام بالدعاية السياسية التي لا تنفصل عن طبيعة العمل السياسي وتلتقي في بعض نقاط مع التعليم والاعلام والارشاد . لقد بث دعوة السلطان ابي سالم مع الخطيب ابن مرزوق بفاس . « وحرصنا شيوخ بني مريم وامراء الدولة على الوزير الحسن ابن عمر وسلطانة السعيد بن ابي عنان حتى اجابوا . » ولما انتصر ابو سالم ، استعمل عبد الرحمن بن خلدون سنة ٧٦٠ هجرية في « كتابة سره والترسيل عنه والانشاء لمخاطباته » ويقول ابن خلدون ان كلامه كان مرسلا . والكلام المرسل مستغرب عند أهل هذه الصناعة . « الكلام المرسل صعب ، لانه صعب الانتحال بعكس السجع . ثم تولى « خطة المظالم » اخر الدولة . ويذكر كعادته ان المنافسين قد سعوا به الى ان حصل الخلاف بينه وبين ابي سالم المريني . ولما تار الوزير عمر بن عبد الله أقر ابن خلدون ما كان عليه . « وكنت اسمو بطفيان الشباب الى ارفع مما كنت فيه » . هذا تعريخ رئيسي يبرر جزئيا سلوك ابن خلدون سياسيا وعلميا . فطلب من السلطان الاذن بالرحيل فابى ، فاستعطف بقصيدة واعانه الوزير حتى اذن له في الانطلاق فاختار الاندلس . نلاحظ ان المثقف العربي كان خاضعا للسلطان ، وان طاقته الثورية كانت متعمدة او ضعيفة ، والذين كانوا يملكون مثل هذه الطاقة ، كانوا يحتاجون الى النظام السياسي الواعي الذي يستقطب طاقتهم ويحولها الى طاقة اجتماعية فعالة . ابن خلدون ، كان يحتاج الى مثل هذه الطاقة ، الا ان

وعشرين ختمة ثم جمعها في ختمة واحدة . فهذا يعني ان تجويد القرآن عند العرب في القرن الرابع عشر كان امرا رئيسيا في تعليم الناشئة وفي تكوين فكرولوجيتها المستقبلية . فالعربية كانت اذ ذاك لغة ديسن ولغة حضارة ، وهذا يعطينا فكرة عن مدى تفقيد التعليم ومدى الارتباط الحاصل بين الدين والعصر . ونلاحظ من خلال اسلوب ابن خلدون مدى تأثره بالاسلام وبغضبية المؤمن ، فهو لا يذكر استاذا مات الا ويتبع ذكره بـ « رحمة الله » . وهذا غير ملاحظ اجمالا في كتابات الفريبيين وبعض العرب المعاصرين . قلنا ان العربية كانت لغة دين ، وكانت أيضا لغة حضارة . فالاستاذ المكتوب ، كان يهتم أيضا بتدريس الادب والشعر خصوصا . فيذكر ابن خلدون ان عارض استاذه بقصيدتي الشاطبي - اللاميه والرائيه - في القراءات والرسم . وبعد ذلك عرض على استاذه كتاب التقي لحداد الموطا لابن عبد البر . نستنتج ان فوام التعليم كان الفكرولوجيا الاسلامية من جهة ، والحضارة العربية من جهة اخرى . اما صناعة العربية فقد تعلمها على والده بتونس وعدد من الاساتذة . قد يبدو من الممل ان نذكر اسماء هؤلاء الاساتذة . غير ان الباحث يحتاج الى جلد وصبر وتفكير في أهمية مثل هذه الإيرادات ، كذلك القارئ . فلذکرهم أهمية في تاريخ التعليم وفي التعرف على منهجهم . أهمية اخرى : التعرف على العصر وثقافته . فما هو منهج امام العربية والادب مثلا ؟ يقول ابن خلدون « وأشار علي (ابو عبد الله محمد بن بحر) بحفظ الشعر فحفظت كتاب الاشعار الستة والحامسة للاعلم وشعر حبيب (أي أبي تمام) وطائفة من شعر المتنبي ، ومن اشعار كتاب الاغانى » . فلماذا يلج امام العربية على حفظ الشعر ؟ ما هي أهمية الشعر عند العرب ؟ وهل تتجاوب هذه المحفوظات مع حاجات العصر العربي في القرن الرابع عشر ؟ ألم يكن المجتمع بحاجة الى العلوم الاخرى ، التي كان العرب قد بدأ بتطويرها ؟ لا ريب ان مكانة الشعر قد كانت ولم نزل كبيرة عند العرب ، وان العرب شعراء قبل كل شيء . فلماذا هم كذلك ؟ نحن نفتح باب التساؤل . ثم أخذ الفقه عن الجياني والقصير بتونس . فهل تلتقي على صعيد واحد الفكرولوجيا الاسلامية - القرآن الكريم ، السنة ، الفقه ... - والفكرولوجيا العربية - الحضارية ؟ يبدو لنا ان العرب في الماضي كانوا يرون ان كلا العالمين متممان لبعضهما البعض ، ولم يزل مثل هذا الاعتقاد سائدا في عصرنا . بقي ان نعرف اذا كان ذلك ممكنا في عصرنا الحاضر ، وهذا شيء اخر . فابن خلدون قد توغل أيضا في عالم الامور الفكرية الخاصة ، فقد اخذ المنطق والاصليين وسائر الفنون الحكيمية والتعليمية عن شيخ العلوم العقلية (الابلي) . واخذ عن علي بن تروميت العلوم العقلية وسواها . هذا يعني ان التعليم الديني كان يواكب التعليم الحضاري ، الا اننا نجد اخصائيين في كل فرع . اذن كان بإمكان العرب تطوير العلوم العقلية والدينية في آن ، ولم يكن الاسلام يحول دون ذلك ، فتأخر العرب في تطوير العلوم الحديثة لم يكن ناجما عن الفكرولوجيا الاسلامية وانما كان سببه الرئيسي رزوح العرب تحت نير الانقساب والفقر والاستبداد الذي لا تزال نعاني منه في عالمنا العربي المعاصر . لقد تطورت تجربة ابن خلدون الفكرية خلال مفارته السياسية أيضا ، ولعله أدرك النضوج الحقيقي خلالها ، بفضل حزمه وبحته ومفارته .

ب- تجربته السياسية

بدأ مفارته عند السلطان ابي سالم فتولى « الانشاء والتوقيع والسر » . نلاحظ أولا ان ثمة علاقة غير واعية بين التعليم والعمل الاجتماعي . فتعليم الادب والكتابة كان وظيفة وليس رمزيا ، أي انه كان يلبي حاجة من حاجات المجتمع ولم تزل هذه الحاجة موجودة في عصرنا رغم دخول الآلات العديدة فالالة تسجل لكنها ليست ذات اسلوب مميز . لقد كانت مؤسسة التعليم التقليدية عند العرب لا تتعارض مع المؤسسات السياسية والقضائية او السلطانية كما يقول ابن خلدون . ويذكر انه خرج من تونس طلبا للعلم سنة ٧٥٣ هجرية . فهل كان العلم غايته الوحيدة ؟ فعندما حل المرينيون بالمغرب دعي ابن خلدون الى

البتة عن حياته. الوجدانية والوجدية ، وهو لا يطرح أي مشكلة قومية - مثلا أثر الاستعمار الاجنبي على العقلية العربية ... - طبعاً هذا بمن لا اكثر . فنحن لا نطمح بمطالبته بأن يعالج كل مشاكل العصر . نرك ابن الاحمر ، ويذكر ان خلافا حصل بينه وبين الشاعر ابن الخطيب فخرج . لانه علم ان السلطان ابا عبد الله قد استولى على بجاية ، فرحل اليه فنولى الحجابة . والحجابه يعني في دول المغرب ، الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان واهل دوتته لا يشاركه الحاجب فيها احد . ولعل حب ابن خلدون لوصف تكريمه واستقباله يعبر عن نفسيته ومطامعه السلطانية يقول «... تم وصلت الى السلطان فحيا ومدى وخلع وحمل واصبحت من الغد ، وقد امر السلطان اهل الدولة بمباركة بابي ، واسنقلت بحمل ملكه واستغرقت جهدي في سياسة اموره وتبديل سلطانه ، ودممني للخطابة بجامع القصبة وأنا مع ذلك عاكف .. الى بديس العلم .. » هذا الوصف المسهب الذي افتطنا منه هذه المقاطع تظهر لنا بعض رغبات ابن خلدون العميقة « مباركة بابي » . يرغب في ان يصير مفضودا ، مدبرا وفاندا .

وبعد ان قتل السلطان ابو العباس السلطان ابا عبد الله ، رفض ابن خلدون ان يتأدي بمبايعة احد أبناء السلطان القليل وآثر الالتحاق بالسلطان المنصور .. فالتحق به ونال كرمه وجبه ثم تركه قاصدا ابا حمد صاحب تلمسان . يقول : « وكان السلطان أبو حمو قد بلغه خروجه من بجاية وما أحدثه السلطان بعدي في أخي وأهلي ومخلفي ، فكتب الي يستقدمني قبل هذه الواقعة وكانت الامور قد اشتبهت ، فتفاديت بالاعذار ... » . لقد دار صراع عنيف بين السلطان ابي العباس والسلطان ابي حمو ، فرأى ابن خلدون ان الامور غير واضحة وان اتخاذ موقف امر صعب ، فأثر الزيت والصبر ، فخالفته لم تكن اخلافيه ملتزم لا يتردد في النضال من أجل قضية عقيدة اعتنقها . كان ابن خلدون ذا اخلاقية مصلحية . لكل واقعة موقف . وكانت سياسته سياسة دياكتيكية ، وكانت خطوطها لا تعمل على ابراز خطة معينة ، سوى رغبة ابن خلدون في التفوق السياسي والوصول الى أعلى الرتب . يقول : « فلما وصل السلطان ابو حمو الى تلمسان ، وقد جزع للواقعة ، اخذ في استئلاف قبائل رباح ، ليحلب بهم مع عساكره على اوطان بجاية ، وخطبني في ذلك لفرب عهدي باستنباغهم وملك زمامهم ، ورأى أن يعول علي في ذلك فاستدعاني لحجابته وعلامته » . « وكان أخي يحيى قد خلص من اعتقاله ببونة وقدم علي ببسكرة ، فبعثته الى السلطان ابي حمو كالثائب عني في الوظيفة متفاديا عن تجشم أهوالها ، بما كنت قد نزعمت عن غواية الرتب ، وطال علي اغفال العلم ، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك وبعثت الهمة على المطالعة والتدريس .. » . اذا كان ابن خلدون مقتنعا فعلا بأهوال الحكم فلماذا يجشم أخاه يحيى صعوبات كهذه ؟ ان موقف ابن خلدون واضح ، فهو اذ يقول انه ينزع الى العلم ، فذلك صحيح لان تجربته العلمية لم تفصل عن تجربته السياسية ، وانما كان ثمة حوار متواصل بين الاثنين قوامه رغبات ابن خلدون العميقة وتمثلها في نوع من « التعويض النفسي » . فهو اذ يفشل في تجربته العلمية يلجأ الى التجربة السياسية وبالعكس . ودليل ذلك انه بينما كان منقطعاً الى التدريس في خلوته بالعباد عند رباط الولي ابي مدين ودعاه السلطان عبد العزيز استجاب لدعوته « فلم يسعني الا اجابته وخلع علي وحملني » . « ثم اتصل مقامي ببسكرة ، والمغرب الاوسط مضطرب بالفتنة المانعة من الاتصال بالسلطان عبد العزيز ... » وهو لا يلبث ان يجري في التيار السياسي ، وان كان محتفظاً بوعيه المصلحي وبرغباته الشخصية ، الا انه يضع نفسه فجأة في خدمة سلطان اخر . بعد ذلك عاد ابن خلدون الى المغرب الاقصى سنة ٧٧٤ هجرية - ١٣٧٢ ميلادية . فلم يتم له الاتصال بالسلطان عبد العزيز المريني الذي توفي في نفس العام . وفي فاس استعاد مكانته « أمير المحل ، نابه الرتبة ، عريض الجاه ، منوه

انعدام وجود نظام سياسي واعى يعلى انعدام الطافة الثورية الفردية ، ولعل ظهور بعض الانظمة الثورية اليسارية في الوطن العربي قد ساعد ولم يزل ، على تطوير الطافة الثورية عند المثقفين والعمال العرب . اذ ان الثورة الفردية تشير الفصائح اكثر مما يؤدي الى التبدل التركيبي الاجتماعي . وهكذا نرى ان العرب حققوا بفضل ثورتهم من اجل خلق نظام معادى وطليعي ، انتصارا مهما لا يمكن تجاهله ، وخطوا بذلك بفضل طريقتهم الاشتراكية الجديدة اهم المشكلات التي كانت تشغل عصر ابن خلدون . فبينما يحد النظام الثوري الاشتراكي من حدة الانتصارات الداخلية ويمنع تفكك الاوصار بين الطافات ، كان العرب في القرن الرابع عشر في حالة فلق تاريخي شامل ، فالقرن الرابع عشر هو عصر الفلق السياسي ، الذي لا يجد أرضاً صلبة ، يبني عليها . ومن هنا سر ضياع المثقفين العرب في القرن الرابع عشر ، وفي عصرنا في بعض البلدان العربية التي لم تحقق ثورتها المنتظرة . اذن تنقل ابن خلدون وعدم استفارده سياسيا وعلميا كان وليد الفلق الحضاري السياسي والاقتصادي . والقرن الرابع عشر ان لم يكن عصر شك فسي قيمنا وحضارتنا ، فقد كان عصر تاكل غوغائي وعشوائي . التحول ضروري بشرطين : الوعي والاتجاه . وهذا ما كان يفتقر اليه ابن خلدون وعصره . انقل من افريقية الشمالية الى الاندلس فاتتني بالسلطان ابن الاحمر وبوزيره الشاعر الكبير ابن الخطيب ، فاهتز السلطان لقدمه كما يقول . الا ان ابن خلدون لم يمكث عنده سوى ثلاث سنوات من ١٣١٢ ميلادية الى ١٣٦٥ . فقصده الطاغية ملك فشتالة لانمام عقد الصلح بينه وبين ملوك عديدة . لقد لعب دور السفير ، ودور القاضي والفقيه والكاظم .. فلماذا كان يقلب بين هذه الادوار الكثيرة ؟ الم يكسب يطمع ابن خلدون في لعب دور رئيسي في حياته ؟ ماذا يفعل ابن خلدون لو صار سلطانا ؟ هل يترك العلم نهائيا وينشغل عنه بالسياسة ؟ هل يمكن القول ان فشله السياسي ونقله المتواصل دفعاه الى الاعتزال وكتابة المقدمة ؟ هذه فرضيات ، الا اننا نميل الى الاعتقاد بان دور ابن خلدون الرئيسي كان سياسيا ، وكان دوره العلمي قبل عكوفه دورا ثانويا ، او على الاقل لا يعادل الدور السياسي . فابن خلدون لا يحدثنا في « التعريف » عن تجربته كفاريء او ككاتب ولا يبرر تبريرا مقنعا الدوافع التي جعلته يكتب مؤلفه التاريخي . اكثر من ذلك : لا يتحدث

قريبا

حكاياء للحزن

مجموعة قصص جديدة بقلم

اديب نحوي

مؤلف « حتى يبقى العشب اخضر » و « جومبي »

منشورات دار الاداب

الجلس عند السلطان ...» «) وأما أنا فكنت مقبلا في فاس في ظل الدولة وعنايتها ... واذن للناس جميعا في مياكة ابواب السلطانيين (ابي العباس والامير عبد الرحمن) من غير تكبر فكنت اباكرهما معا)) ان عودة ابن خلدون العالم الى الالتقاء بابن خلدون السياسي امر طبيعي، فهو في الحقيقة متردد في اتجاهه اعظم التردد ، فهو يريد ان يلعب الدورين معا ، والواضح ان كلا الدورين رئيسي في الحياة الاجتماعية ، فكانت نتيجة ذلك ولادة صراع أدى الى ازدواجية شخصية ابن خلدون وفكك بالتالي وحدة تفكيره وأفته . فهو لا يكاد يقرر امرا حتى يعزم على عمل آخر ، وهو لا يكاد يستقر بمكان حتى يبحث عن مكان آخر . هذا القلق هو ثمرة شجرة الاضطراب السياسي التي لم تمتد جذورها كما يجب في ارضها الواقية ، فجاءت ثمراتها غير ناضجة وغير مستسافة كثيرا ، مما أدى الى عدم ظهور فكرولوجيا صحيحة تسمح للمفكر العربي المتميز باسعادة وحدته القومية والثقافية . فالمشكلة تصير اكثر تعقيدا حينما نرغب في فصل النشاطين السياسي والعلمي فعالين معا وبنفس المقدار ، واما حينما نضحي أحدهما دون الآخر فانما نكون قد آثرنا شل نظام رئيسي من أنظمة الحياة ، ومنحنا الاخير وجوده الكامل ، فيتحكم بكل شيء ويفقد الدوران الاجتماعي مرونته وحركته الصحيحة . من هنا كانت بداية الازمة وبداية الضياع بيسن سطح الواقع واعماقه .

فما لبث ابن خلدون ان أزمع على السفر الى الاندلس مرة اخرى ، الا ان أهل الدولة لم يجيزوا أهله وولده ، وساءهم استقرار ابن خلدون في الاندلس لسببين رئيسيين :

- ١ - كان أهل الدولة في المغرب الاقصى يتهمون ابن خلدون في حمل السلطان ابن الاحمر على الليل الى الامير عبد الرحمن .
- ٢ - اتهمه في السعاية لخلص لسان الدين ابن الخطيب الوزير الشاعر .

لقد بعث ابن الخطيب برسالة الى ابن خلدون يرجوه فيها في ان يتوسط في شأنه لدى أهل الدولة ، فحاول ابن خلدون الا انه فشل ، اذ ان الشاعر ابن الخطيب كان قد قتل بمحبسه . بعد ذلك عاد ابن خلدون من الاندلس الى تلمسان . وكان من عادته ان يخرج دائما دون اهله ، ثم يلحقون به فيما بعد . ولعله كان يؤثر النجاة الشخصية من ناحية ولا يرغب في تجسيم أهله احوال مفارمته السياسية من ناحية اخرى . وخرج من تلمسان لاحقا بأحياء اولاد العريف ، ونزل في قلعة ابن سلامة - قلعة تاوغزت من بلاد بني توجين . نلاحظ ان ابن خلدون كان شديد الحذر في سلوكه السياسي ، وكان يجد تقريبا لكل أزمة منقذا . وهو لا يحدثنا ابدا عن حياته العائلية ، خصوصا عن علاقته بزوجه وولده . ولا يكاد يحدثنا عن مطالعته ولا عن كيفية كتابته . لقد التزم في كتابه طريقة خاصة : فهو يفضل رسم الخطوط العريضة لحياته التاريخية مظهرا أهميتها من خلال تلاحم القرن الرابع عشر وتناكله . فبينما كانت الحمى السياسية متفشية بما يتبعها من اضطراب وفوضى ، كانت الحمى العلمية تنتاب بعض الغربيين . وحينما جاء دور العلم ، لم يغفل ابن خلدون عليه ، فأوفاه حقه او حاول ذلك . فالتف في القطعة مقدمة كتاب العبر الى اخبار العرب والبربر وزناتة ، وكان في كتابته يعتمد على ذاكرته ويلجأ احيانا الى مطالعة الكتب والدواوين التي يحتاج اليها . فقام بمراجعة السلطان ابي العباس ناويا الرحلة الى تونس . وكان له ذلك في شعبان سنة ٧٨٠ هجرية . يقول : «) وبعثت عن الاهل والولد وجمعت شملهم في مرعى تلك النعمة ...» . نلاحظ ان ابن خلدون يذكر باستمرار ان السلاطين والامراء الذين لا قاهم في مفارمته كانوا يكرمونه دائما فلماذا كان يتخلى عنهم ؟ لعل طموحه الفكري والسياسي الذي لا يجد مكان الباعث الحقيقي على اشتداد توتره الكياني ، فما كان يهيمه ليس الملك المادي ، بل دليل عدم استقراره ، وانما الملك السياسي او الرياسة الروحية بما يتبعها من جاه وملك مادي وعلو عقلاني وقيادي . ففي

تونس طلب السلطان ابو العباس من ابن خلدون ان يتم كتابته « الى اخبار الدولتين وما قبل الاسلام » ففعل ، ورفع نسخة منه الى مكتبة السلطان . ثم مدح السلطان بقصيدتين . ثم أظلم الجو كعادته بينهما . فخرج الى مصر زاعما انه يرغب في قضاء فرض الحج ، فكان له ذلك سنة ٧٨٤ هـ . ١٣٧٢ م . رحل الى مصر وحيداً وأقام شهرا بالاسكندرية لتهيئة اسباب الحج . «) ولم يقدر عامئذ فانقلبت الى القاهرة اول ذي القعدة » . ويصف ابن خلدون القاهرة فيقول : «) فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكروسي الملك ، تلوح القصور والاواوين في جوه وتزهر الخوانك (ق) والمدارس بأفاهه وتضيء الدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطيء بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحبه ... ومررت في سكك المدينة تفص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم » . نحن لم نقل ان ابن خلدون اديب ، وانما هو عالم ، ولكننا حينما نقرأ وصفه للقاهرة ، نشعر فعلا ان ابن خلدون عالم واديب . فهو آذ يبين عظمة القاهرة علما واسلاما ، يبين روعتها أرضا وسما وأزدهارها روحا ومادة . ويضيف ابن خلدون «) فقلت له (لابي عبد الله المقري) كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام » . كانت القاهرة في القرن الرابع عشر عز الاسلام أي أنها كانت الارض المخلصة للمؤسسات الاسلامية ، البشارة بالفكرولوجيا الاسلامية عن طريق الأزهر والمدارس والخوانق . ولعل جموح العالم الخلدوني قد دفعه الى تغيير مناخه الفكري والتعرف على مناخ آخر . فجلس للتدريس بالجامع الأزهر واتصل بالسلطان . وكان في مصر مدارس للاوقاف كالتي نجدها في لبنان حاليا وسواه . وعمل ابن خلدون عالم واديب . فهو آذ يبين عظمة القاهرة علما واسلاما ، ثم تولى منصب القاضي المالكي سنة ٧٨٦ هـ . ثم لا يلبث ان يظلم الجو بين الخلدوني والسلطان . فابن خلدون هو البطل المتقلب المحسود ابدا . يقول : «) فكثر الشغب عليّ من كل جانب وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة . ووافق ذلك مصابي بالاهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين ، فأصابها عاصف من الريح ففرقت وذهب الموجود والسكن والولود ، فظم المصاب والجزع ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب فلم يوافقني عليه التصيح ممن استشرته ، خشية من تكسر السلطان وسخطه » . لقد كانت المدارس بمصر تزود الطلاب بالعلم ، وكانت الخوانق تقام لاعانة الفقراء على التخلق بأداب الصوفية السنية في مطارحة الاذكار ونوافل الصلوات . وكانت الدولة التركية معنية بذلك «) واقتدى بسنتهم (أي بسنة أهل الدولة التركية بمصر والشام) في ذلك من تحت ايديهم من أهل الرياسة والثروة فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة ، وأصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية » . وكان بمصر مدرسة من انشاء صلاح الدين الايوبي وفقها على المالكية يتدارسون بها الفقه ، كما وقف أخرى على الشافعية . هذا يعطينا فكرة غير واضحة عن تعليم الفكرولوجيا الاسلامية في مصر . وبعيننا على فهم تطور التعليم الشافعي والمالكي . الا ان هذه الفكرة غير كافية ويا ليت ابن خلدون اهتم اكثر في الالحاح على دور التعليم بمصر انذاك . وابن خلدون لا يتردد في مدح ذوي السلطان مهما كانوا ، فمن خطبة له في القاهرة يقول : «) ولم تزل الاجيال تتداول على ذلك والاعصار والدول تحتفل والامصار والليل يختلف والنهار حتى اظلت الاسلام دول هذه العصابة المنصورة من الترك ، الماحين بانوار استنتهم ظلم الضلالة والشك ، القاطعين بنصالهم المرهفة علائق اليمن والإفك ، المصيبين بسهامهم النافذة نقر الجهالة والشرك ...» (ص ٢٨١ - ٢٨٢) ، كتاب «) التصرير بابن خلدون » . نعتقد ان ابن خلدون واضح كفاية . فهل هذا نقد للعرب ومدح للانراك المستعمرين؟ لنترك هذا الان وسنعود الى رأي ابن خلدون في العرب حينما نتعرض للمقدمة .

بهذه الواقعة لا متقدم عليها (٩٧٧) وعلى الميتافيزيقا ، وبشكل مشروع ، ان تحاول تحديد طبيعة ومعنى ما هو «سابق للتاريخ (٩٧٩) وان تضع الفرضيات التي تفسر ، ولكن بتفسير احتمالي ، ما لا يدخل ضمن نطاق الانطولوجيا (٩٧٦ - ٩٧٩) .

والواقع ان حدس سارتر الاساسي هو الوجود الانساني كحرية ، والحرية كواقعة شعورية تدرك انهاء ، بوصفها واقعة ، لا يمكن ان تتقوم بذاتها ، وانها بحاجة الى الماهية لتبرر وجودها . وكل شيء يجري كما لو ان الوجود بمجموعه الذي هو ايضا واقعة (فردية وعينية كما رأينا) اذ يتحسس بذات النقص ، يتفكك من الداخل لينبثق فيه الشعور معبرا عن ذات الحاجة وساعيا وراء ذات الهدف . وعندئذ يبدو له « ما هو علة ذاته » او « المطلق » (اي الوجود كما تحدد في الارسططالية - التومائية خلال القرن الثالث عشر) يبدو له بصيغة الغائب . وهذا الغياب ، هذا النقص هو المحرك للوجود السارترى كله ، او بشكل ادق ، وجود الانسان .

فالوجود الانساني ، بما هو موجود ، قائم بين حدين : (ما قد كان) اي ما حققه و (ما سيكون) اي الغاية ، وبعدها ما هو علة ذاته ، او بين حركتين : الرفض والهرب الى الامام ، فهو حركة فريدة في فسحة العدم وشفاقيته . وعندما يتركز في هذه النقطة تبدو الحرية لسارتر كقوة

لا تقتصر على اعدام ما هو في - ذاته ، بل تهدم نفسها من الداخل - الحرية تقترض نفسها (٧٦٣) - لتتجدد باستمرار ، وكان مناطق الوجود ، كان البناء الانطولوجي لم يدفع الا لابرار هذه الحركة .

يمكن تجميع ما اخذ او قد يؤخذ على الانطولوجيا السارترية في النقاط التالية :

١ - ترى الاشياء (التي - ذاته) شتاتا يضيف اليه الفكر النظام (السبب ، القانون ، وكل شرح آخر) من الخارج ، فهي لا تصلح كأساس لفلسفة للطبيعة .

٢ - وكذلك عالمها الانساني ، فهو مجموعة حريات ، كل منها كيان مستقل ، وكل منها تسعى لامتلاك الاخرى اذ تحولها بالنظرة الى شيء تصهره في كيانها (١) ، فهي جذريا فلسفة فردية لا يمكن ان تبرر قيام التاريخ والمجتمع كوجودين مستقلين عن الفرد .

٣ - ان المطلق فيها (اذا صح وكان ما هو علة ذاته مطلقا) حضور على صيغة الغياب ، فهو يحرك الوجود دون ان يتمكن من تقويمه ، والحرية لا تحيل الا الى ذاتها ، فلا يمكنها ان تأمل في مستقبل أمثل ، كما في الماركسية ، ولا

(١) لسارتر في علاقة الانسحاب بالآخر نظرية جديدة لجدتها بدراسة خاصة ومطولة . راجع ، بشكل خاص الفقرة ٤ من الفصل الاول ، القسم الثالث من كتاب (الوجود والعدم) .

الفرنج والدفاع عن سواحل الشام ، فقد ملك المغرب عن اجابته في الاسطول . لم يكن في القرن الرابع عشر معنى حقيقي للدفاع القومي العربي ، وكان طغيان المصالح السلطانية قد بلغ ذروته . في القسرن العشرين ، وامام اسرائيل ، لا نزال نمانى نفس المشكلة . ويرى ابن خلدون ان سبب هذا التقاعس يعود الى وجود كاتب عند يعقوب المنصور يدعى عبد الرحيم البيساني الذي يعتقد ان لواء الخلافة لا يعقد لشخصين في الاسلام . ولا نزال ايضا نمانى جزئيا من اثار هذا الاعتقاد الخاطيء ، اذ ان قيام وحدة فدرالية او اندماجية لا يضر بمصلحة الامة العربية ، بل يساعد كثيرا على تجاوز مصاعب وازمات كثيرة . ولما انقرضت دولة الموحدين وجاءت دولة بني مرين من بعدهم تحسنت العلاقات بين عرب المشرق وعرب المغرب . الا ان هذه العلاقات لم تتجاوز - وللأسف - تبادل الهدايا الملكية من خيل وبغال . وكان المشرق العربي بحاجة ماسة للخيل ، فعين الملك الظاهر مملوكا من مماليكه لشراء الخيل من المغرب .

ثم تولى ابن خلدون ولاية القضاء الثانية بمصر من سنة ٨٠١ هـ الى ٨٠٣ هـ وسافر مع السلطان الى الشام للنضال ضد التتر . ويمثل ابن خلدون وجود الامم ويقسمها الى فئتين : العرب والتتر ، ويورد نظرية الاقاليم السبعة وقد تحدث عنها باسهاب في مقدمة الكتاب الاول ، الجزء الاول . ولما انسحب فرج بن الظاهر واستسلمت دمشق لآل ابن خلدون لقاء تيمورلنك على العودة الى مصر لتوه . ثم رجع الى مصر وتولى فيها ولاية القضاء الثالثة سنة ٨٠٣ هـ وتركها سنة ٨٠٤ هـ ، ثم تولى الربعة وعزل ثم الخامسة ، وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٦ هـ جربة الموافقة ١٤٠٦ للميلاد .

وبعد ، فقد رأينا تجرئتي ابن خلدون العلمية والسياسية ، فما هو المحتوى الفكري عنده وما علاقته بالواقع ؟ هذا ما سنعالجه في القسم الثاني من البحث .

خليل احمد خليل

ابن خلدون

- تنمة المنشور على الصفحة ٢١ -

وابن خلدون شاعر فاضل ، الا ان اسلوبه الادبي يشير الإعجاب . يقول واصفا رحلته : « ولما سبحت في اللج الازرق وخطوت من افق المغرب الى افق المشرق حيث نهر النهار ينصب من صفحه المشرق ، وشجرة الملك التي اعتر بها الاسلام تهتز في دوحه المرق ، وازهار انثون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تنبث وتشلنا من فراته المفقدي » . حتى ولو كنا لا نحب السجع ، فان هذا السجع المرسل محبب نسبيا . وابن خلدون يكرر افكاره وحوادث حياته كثيرا : فتارة يكرر خبر ولايته القضاء بمصر وتارة يكرر خبر فرقة اهله (ص ٢٨٥) وخبر الحج (ص ٢٩٣) وفي صفحة ٢٩٧ - ٣١٠ يعرف بالامام مالك بن انس ويكتبه وغرض الكتاب هو التعريف بابن خلدون لا بمعارفه . ثم تولى ولاية خانقاه ببيرس الى ان وقعت فتنة الناصري ، فعزل منها . وكان للفقهاء دور مهم في القرن الرابع عشر ، اذ انهم كانوا يعطون فتاوى تتعلق بشؤون الحكم . يقول ابن خلدون : « وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء ، فتاوى استدعاها منا منطاش واكرهنا على كتابتها ، فكتبتها ووريتها فيها بما قدرنا عليه ، ولم يقبل السلطان ذلك وعتب عليه (على منطاش) وخصوصا علي .. » .

وقد حاول ابن خلدون ان يوطد علاقات المشرقين بالمغربيين - لم تكن وارادة لديه فكرة الوحدة العربية - فهو يسعى في تحسين العلاقات بين ملوك المغرب والملك الظاهر . فلما طلب صلاح الدين الايوبي معاونة اسطول ملك المغرب يعقوب المنصور من بني عبد المؤمن للوقوف في وجه